المحاضرة السادسة

رحلة الآداب

تمهيد:

إنّ الحديث عن انتقال الآداب من لغة قومية إلى أخرى هو حديث من صلب اهتمامات الدراسات المقارنة، ولعلّ المقصود هنا بالرحلة هو انتقال هذه الآداب من بلدها الأصلي إلى بلد آخر بشرط أن تحدث تأثيرا فيها، وبالتالي فإنّ في هذا الفعل ما يعين بلد أمة ما من بلوغ العالمية من جهة، أو يمنحه فرصة التطوّر والاستفادة من الآداب الأخرى من جهة أخرى، ومن هنا جاءت تسمية " رحلة الآداب" أو " هجرة النصوص" لتتجاوز الحدود اللغوية والثقافية.

وعليه نرى مدى اهتمام الأدب المقارن بهذا الفرع عبر دراسة أسباب الهجرة والأثر الذي تتركه هذه النصوص في أدب الآخر ولغته، وتتحكم في هذه الرحلة عدّة وسائل وعوامل نجملها فيما يلي:

1ـ الكتب:

إنّ أبسط تعريف يمكن تقديمه لهذا المصطلح هو " الوعاء الحقيقي للنشاط الفكري والحضاري للبشرية، وهو الوسيلة المثلى لنقل المعارف بين الأجيال والأمم لتكوين ما يمكن أن نسميه

الحضارة العالمية"[1]، ويظهر من هذا القول أهمية الكتاب بوصفه وسيطا مهما في نقل المعارف من موطنه نحو آداب أمم أخرى، لما لها من أهمية كبرى في إثبات الصلات الفكرية بين الآداب، و"الأدب المقارن يهتم أولا بإثبات الصلة بين الوسط المؤثر والوسط المتأثر، ويستعان في ذلك بما أدلى به المؤلف من تصريحات من نوع ثقافته وتأثره بكاتب أو ثقافة بلد ما[2]

وبالتالي يدرس الأدب المقارن تأثير وتأثر هذه الآداب فيما بينها، محاولا تبيان مواطن التأثر هذه، عبر إظهار التغييرات الحاصلة فيها، ولا يمكن لأحد إنكار هذه العملية المزدوجة (التأثير والتأثر)، ورغم ما يروج له في أنّ الأدب العربي قد تأثر فقط ولم يؤثر بدوره، إلاّ أنّ كتب التاريخ الأدبي تثبت زيف هذا الطرح، ونذكر على سبيل المثال تأثير " رسالة الغفران " للمعري على الثقافة الغربية.

ويشير القس والباحث" دون ميقال أسين" إلى أنّ المرجعية الأساسية للكوميديا الإلهية هي التراث الإسلامي، اما الإيطالي " كيدو" فيشير إلى آثار رسالة الغفران للمعري في الكوميديا الإلهية، ويتفق الاثنان إلى الدور البارز الذي قام به الملك " ألفونسو العاشر" في نقل وترجمة التراث العربي، ومن الكتب التي اعتمدها دانتي

[1]- حامد الشافعي دياب، الكتب والمكتبات في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص 77.

[2]- محمد غنيمي هلال، المواقف الأدبية، مرجع سابق، ص 06.

حسبهم نذكر " كتاب الأسرار" لمحي الدين بن عربي وكذا "الفتوحات المكية" الحكايات الشعبية الأندلسية في مسألة المعراج، وقصص الأنبياء للثعالبي.

كما لا يمكن أن ننكر تأثر الأدب العربي بالآداب الفارسية وغيرها، ومن بين أعظم الأمثلة التي يمكن ان نشير إليها في قضية ر حلة الآداب (كتاب كليلة ودمنة) من مصدره الهندي نحو الآداب الغربية (الفرنسية مع لافونتين) مرورا بالثقافة الفارسية فالعربية، وهذه الأخيرة جعلته يحتك بالثقافة الغربية إبان الفتوحات الإسلامية في أوروبا.

2- المؤلفون والكُتّاب:

يلعب المؤلفون دورا محوريا في ارتحال الآداب، خاصة في حالة الهجرة أو البعثات الدراسية التي يقوم بها هؤلاء الكُتّاب، ومهما كان فإنّ الأثر الذي يتركه هذا الكاتب في ثقافة الآخر من خلال آرائه ومنتجاته يُعد من بين أبرز ما يدرسه الأدب القارن، كما نجده أيضا في الحالات المعاكسة أي ما يحمله هذا الكاتب من ثقافة الآخر ويجعلها نقطة تحوّل في أدب أمته، ولعلّ من بين الأمثلة التي يمكن أن ندرجها هنا هو الزاد المعرفي والنظري الذي حمله كتابنا العرب المهجريين من أوروبا وغيرها، وفي مجال الأدب المقارن تعتبر تجربة المصري " محمد غنيمي هلال" أحسن تجربة في انتقال الفكر الغربي (الفرنسي) إلى العربية.

3- الترجمة:

تعتبر الترجمة من بين الطرق المباشرة لانتقال أدب من لغة إلى أخرى، فهي تلعب دورا محوريا في هذا المجال، منه فإنّ لها "أهمية خاصة لدى الباحثين في الأدب المقارن، إذ هي أساس معرفة ما لاقى الكتّاب والشعراء من حظوة لدى الشعوب التي ترجمت لها كتبهم، وبها يعرف مدى تأثر الكتّاب الآخرين بهم في تلك الشعوب .وقد بلغ من شهرة بعض الكتّاب أن لاقوا نجاحا في غير لغتهم أكثر مما لاقوا لدى أبناء أدبهم من معاصريه"[3]

منه فترجمة عمل أدبي من لغته إلى لغات أخرى يعد اعترافا صريحا بدرجة التأثير الكبيرة في الآداب الأخرى، ومجرد الترجمة يعني انتقال وارتحال، منه تلعب الترجمة دور الوسيط في انتقال الآداب من لغة (المصدر) إلى لغة (الهدف).

4- الصالونات الأدبية:

الصالونات الأدبية هي تلك النوادي الأدبية التي اشتهرت بها أوروبا منذ عصر التنوير، إذ يجتمع فيها أشهر الكتّاب والنّقاد والفلاسفة حول قضية من القضايا أو دراسة كتاب معين، ومن بين أشهر الصالونات ما انتشر في القرن السابع عشر في فرنسا وما بعدها، نجد على سبيل الذكر صالون" مادام دي ستال بين عامي 1795 و 1821 و "الذي لعب دورا هاما في الحياة الأدبية في باريس، فقد كانت صاحبته أديبة كبيرة وناقدة عظيمة، هيأت المناخ لتطوّر عظيم في النقد والأدب"[4]

---

[3]- محمد غنيمي هلال :الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 125.

[4]- الطاهر أحمد مكي :في الأدب المقارن دراسات نظرية وتطبيقية، ص89.

ولقد تطورت هذه الصالونات لتأخذ أشكالا عديدة منها ما انتقل في العصر الحديث إلى التلفزيون، أو ما تحول إلى نواد ومقاهٍ أدبية.

5- الهجرات:

تعتبر الهجرة من بين الحتميات لدى البعض، وقد تحدث نتيجة الحروب أو الأحداث السياسية، كما يمكن أن تكون نتيجة بعثات علمية من بلد نحو آخر، وتنتج عن هذه العملية عملية أخرى تمتاز بالاحتكاك بين الشعوب فتؤثر وتتأثر ، وقد عرفت المنطقة العربية هذه البعثات والتي أطلق عليها الكثير من الأسماء مثل " جماعة الديوان" و" جماعة المهجر" و " جماعة أبولو"، والمعروف أنّها كانت من بين أحسن سفراء الأدب العربي في الغرب، كما استوردوا الأدب الغربي ونظرياته مما ساهم في تطوير الأدب العربي.

6- الحروب:

اهتم الأدب المقارن بهذا العنصر الفعّال والذي ساهم بطريقة أو بأخرى في نقل المعارف والآداب والفنون من المستعمِر نحو المستعمَر، أو مثلما عفناه من خلال الفتوحات الإسلامية نحو أوروبا والتي عرفت نقلا واسعا للمعارف العربية نحو الغرب وإقامة جامعات (جامعة قرطبة) ومدارس لتعليم العلوم العربية، والتي عرفت ترجمة واسعة من طرف الغربيين، لهذا يهتم الأدب المقارن ويدرسه ويتتبع هذه الرحلة رغم أنها من أثار الحروب.